من شعراء القرن التاسع عشر

الشيخ كاظم سبتي (١)

هو ابو محمد الكاظم بن ابي علي الحسن بن ابي الحسن علي بن سبتي السهلاني الحيري المعروف بسبتي من أشهر مشاهير خطباء عصره .

مولده في النجف سنة ١٢٥٨ هـ ١٨٤٢ م من ابوين كريمين . مات أبوه الحسن وهو طفل صغير وكان من الخطباء الصالحين وبقي المترجم له مكفولا من قبل امه فاحسنت تربيته ولما احست منه الذكاء والفطنة اودعته الى صانع ليعتنق مهنة تساعده على الحياة ، ولكن يسرعان ماظهر فيه مفعول الوراثة فغمره بالشعور الحي يسانده الاستعداد الطبيعي الذي شب معه فاندفع يحفظ [أدب الطف] الذي تنوع في وصف مقتل الحسين (ع) فأرهف إحساسه والهب شعوره اليقظ وهو بعد لم يبرح حانوت استاذه ، ولما أن قوي طموحه واشتد ولعه بفن الخطابة والنياحة على الامام المظلوم الحسين بن علي عليه السلام التحق بأحد مشاهير الذاكرين واستمر بصحبته معه ليلتقط صوراً من فنه تساعده على الوصول الى هدفه السامي.

ولقد عرف بصائب فكره ان فن الخطابة اذا كان عارياً عن معلومات علمية وفنون أدبية لايبقى مدة حتى ينهار فسعى بنشاط الى درس العلوم الأدبية والدينية فحضر حلقات الدروس الكبيرة مستقياً من ينابيع سائر العلماء الأعلام كالعلامة الشهير الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ والشيخ ملا لطف الله المازندراني وأمثالهما فنال مكانة سامية في العلم موثوقة بعين الاعظام من ارباب النوادي العلمية والادبية.

ولعل من اخطر الفنون الادبية (أي فن الخطابة) الذى لايحصل إلا باجتماع عوامل الكمال في النفس ، وشذ ان جاء خطيب وقد حصل على فن الخطابة بشكل عارى عن شائبة النقد ، وكان المترجم له ممن حاز على هذا الفن بجدارة واستحقاق فكان اول خطيب وذاكر للحسين استطاع ان يتجول في المواضيع الادبية ويجري المحاكاة على التاريخ المغرض كما ينتزع من الباحث الدينية صوراً يستفيد منها السذج الذين جاءوا لغير هذا القصد فيلقيها عليهم باسلوب يدخل على القلب بدون استئذان ، ويستولي على مشاعر السامع فيملكها ويوجهها نحو الهدف الذي رسمه له ، ولقد أصبح موضع اعجاب اعلام عصره. فقد قال فيه الفقيد الأكبر الشيخ محمد طه نجف المتوفى ١٣٢٣ هـ في الفاتحة التي أقامها العلامة المجاهد السيد علي الداماد لبعض أعلام عصره [ما قدر الله قتل الحسين حتى سبق في علمه عزّ وجل ان يخلق الشيخ كاظم فيكون ذاكراً له وللشهداء معه ليؤسس عزاً وعظمة للمنبر الحسيني ، واني لا أراه على المنبر الا ملكاً انزله الله بصورة البشر] .

وقال فيه احد اساتذته الفقهاء وقيل انه المازندراني : ان لله تعالى في خلقه لعناية اذ شوق الشيخ كاظم لمهنة القراءة على الحسين ليظهر بعض من جد في طلب العلم ، ولولا ذلك لكان الشيخ اظهر أهل عصره من اقرانه من العلماء واشهرهم اليوم .

وأوجز كلمة بليغة قالها فيه الخطيب الشهير السيد صالح الحلي المتوفى ١٣٥٩هـ [الشيخ كاظم هو الرجل الوحيد الذي يقول ويفهم ما يقول] .

كما اثار إعجاب الشعراء فيه ومنهم الشاعر الشهير الخالد الذكر السيد جعفر الحلي المتوفى ١٣١٥هـ قوله فيه : —

انّ دار العلي بكاظم أضحت ... تضع الفرقدين تحت الاساس
عربي له فصاحة سحبان ... ذكي له ذكاء أياس
أثكل الدولتين في شعراها ... وهم في القريض أهل مراس
مدحه في بني النبوّة لا با ... لعبشميين أو بني العباس
وأرى جلبي القريض اليه ... مثل جلب الاماء للنخاس
تتمنى منابر الذكران لا ... يرتقي غيره على الجلاس

وتفوقه في فن الخطابة أدّى الى اشتهاره في الاوساط العراقية وربما تجاوز ذلك الى البحرين والكويت وايران وسوريا ، ونظراً لالتزامه بالمكث في مسقط رأسه فقد رأى أعيان بغداد ان لايحرموا من مواهبه السامية وتبشيره للدين الاسلامي ونشره المثل العليا بين الاوساط الاجتماعية التي

(١) مستل من كتاب [ادب العراق في القرون المظلمة] . لصاحب البيان .

ما زالت ولم تزل بحاجة ماسة الى مرشد ودليل يهديهم الى الى الطريق الموصل الى معرفة الواجب واداءه فطلبوا منه ان يستوطن بغداد فنزح بعياله اليها سنة ١٣٠٨ هـ وأقام بها زمناً لايقل عن ثماني سنين قام في خلالها باداء رسالته التي تفرد بحملها خير قيام باسلوب عريّ عن النقد فسحر فيه العقول واستولى على الأذهان ، ولما أن طال مكثه في بغداد أدركت مدينة النجف الخسارة التي لحقتها من فراقه فطلبه فريق من علمائها واعيانها كالشيخ محمد طه نجف والسيد محمد بحر العلوم والحاج جعفر الشوشتري فعزّ ألا يجيب ورجع الى النجف في سنة ١٣١٥ هـ وأقام فيها ان توفي ليلة الجمعة آخر ربيع الاول سنة ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م .

واذا ماحاولنا البحث عن شاعريته فلاشك تتجلى لنا بصورة محفوفة بالمرونة ومجللة بالصناعة ، وقد تعرض لوصف ديوان المترجم وشعره العلامة الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء عند شرحه لديوان السيد جعفر الحلي [سحر بابل وسجع البلابل] المطبوع بعيد سنة ١٣٣٣ هـ فقال : وله ديوان شعر كبير اكثره من السلس الجاري وفيه مقدار من الحسن الجيد ، وقد وقفت عليه فرأيت اكثره فيما هو نعم الزاد والذخيرة له من مدائح النبي المختار وأهل بيته الأطهار ومراثيهم وانواع النياحات عليهم باوزان مختلفة ، وطرق متعددة اكثرها على اوزان فارسية .

والحق عند دراستي لديوان المترجم له تجلت لي هذه الصورة التي وصفها هذا الحجة في قوله وعمله ، وللاحاطة بالبحث نثبت لك شيئاً من شعره ليتضح مقياس شاعريته لدى كل قارئ اذ كل له رأيه واليك قوله : —

صدع الدجى نوراً وكان بهما ... بدر يريد به الكؤوس نجوما
يجلى بضوء جبينه وبكأسه ... لك ظلمتين دجنة وهموما

وأحل لي شرع الهوى من وصله
ما لم يزل فيه يرى التحريما

فغدي يعاطيني المدام ولم يزل ... يعطي الصدود ويمنع التسليما
يالائمي بهواه لو انصفتني ... لكففت عن لومي وكنت ملوما
أوذقت بعض صبابتي لرحمتني ... وعلمت انك ظالم مظلوما
اني اقيم وقد قضيت صبابة ... فذكرت مياس القوام رخيما
فلقد تقضى العمر ما نومي به ... حذر الوشاة أكان ذاك رقيما
من لنسقيم لمن له بكلامه ... برء وان يك في الفؤاد كلوما
أنا هائم فيمن أتاني زائراً ... سحراً يميل برأسه تهويما
ونبيّ حسن للورى شرع الهوى
قد كانَ لا بالمؤمنين رحيما

رشأ تراه اذا رنى لك مرهفاً ... واهتز لدناً او تلفت ريما
يشفي السقيم برشفة لو لم يكن ... في نظرة يدع البريء سقيما
حيا وقد أحيا صريع جفونه ... بمدامة تحيي العظام رميما
آنستها لما تشعشع ضوؤها ... نار الكليم وكنت منه كليما
تستاف اعراب البوادي نفحها ... فتشم لاشيحاً ولا قيصوما
ياصاحبي وفي الحشاشة جذوة ... للشوق أججها الفراق جحيما
من منكما يصل المشوق وقيما ... بأبرّ ما يصل الحميم حميما
إلمامة بالكرخ لا ألقى بها ... الا منادمة النديم نديما
أمنازل الزوراء قوض راحلا ... عنك العنا والانس ضل مقيما
فترنحي عطفاً وفوزي بالهنا ... فوزاً تلفع بالسرور عظيما
كم ليلة بك قد ابيح لثه بها ... ما كان من سر الهوى مكتوما
تجلو مصابحها الدجى ونجومها ... تجلي شياطين الهموم رجوما

وديوان المترجم له يقع في ستة آلاف بيت ، وقد رتب على حروف المعجم وجاء في اوله من حرف الهمزة قوله : —

ضاقت بك الدنيا فهل لك ملجأ ... تأوي به عنها فانك ملجأ

جاء معظمه في مدح النبي (ص) والأئمة الاثني عشر وفي رثائهم (ع) وفيه عدة قصائد في رثاء فاطمة الزهراء بنت الرسول الاعظم كما فيه عدة مراثي لسيدنا مسلم بن عقيل والعباس بن علي ابن ابي طالب . وقد رثى فيه فريقاً من العلماء الاعلام والاعيان

(١) السيد مهدي القزويني الكبير (٢) الشيخ ميرزا حبيب الله الرشتي سنة ١٣١٣ هـ (٣) الشيخ راضي شقيق المترجم له (٤) الحاج محمود الخياط البغدادي سنة ١٣١٠ هـ (٥) والد العلامة الشيخ هادي الطهراني سنة ١٣٠٥ هـ (٦) العلامة السيد ميرزا حسن الشيرازي سنة ١٣١٢ هـ (٧) فرعون شيخ مشايخ آل فتلة (٨) السيد حسين الترك (٩) الشيخ احمد سبط صاحب الجواهر (١٠) العلامة جعفر الشوشتري سنة ١٣٠٣ هـ .

كما مدح به جماعة (١) الحاج محمد جواد كبة سنة ١٣١٣ هـ [٢] الحاج جعفر الشوشتري [٣] السيد اسد الله

[٤] الحاج حسين الازري سنة ١٣١٤ هـ [٥] السيد محمد بحر العلوم [٦] السلطان ناصر الدين شاه ايران [٧] الحاج وزير خان صدر السلطنة سنة ١٣١١ هـ [٨] الشيخ جعفر بن الشيخ عبد الحسن [٩] الشيخ محمد طه نجف عند قدومه من مكة عام ١٣١٩ هـ [١٠] ميرزا يحيى خان سفير الدولة الايرانية عند قدومه لبغداد في عيد الاضحى وضمنها مدح السلطان مظفر الدين [١١] السيد عبدالله بن السيد اسماعيل البهباني عند قدومه الى النجف من ايران بعد تنازل الشاه محمد علي عن العرش واستفحال المبدء الديمقراطي ضد الاستبداد سنة ١٣٢٦ هـ [١٢] السيد حسين بن السيد عبد الباقي [١٣] الحاج مصطفى كبه [١٤] السيد علي بن السيد محمد زوين [١٥] حسن باشا والي بغداد سنة ١٣١٢ هجرية لتنظيم اوقاف الصحابي سلمان الفارسي [١٦] الشيخ عباس كاشف الغطاء مهنئاً له بعرس ولده المرحوم الشيخ هادي سنة ١٣٠٤ هـ وفيه فصول تتضمن بعض التواريخ للمشاهد المكرمة كما فيه بعض الشعر في الحماسة والفخر .

ويتخلل الديوان شعر قاله بمناسبات لاتزال تردد صداها الاندية الحاضرة ، وشعر المناسبات لايخلو من روعة ومرونة لما فيه من ارصاد النكتة . فمن ذلك ماجرى له وهو على المنبر في دار الشاعر المنسي الشيخ محمد حسن سميسم حيث اقام بمناسبة تجديدها ـ ثلاثة ايام عصراً مأتماً للحسين (ع) وفي خلال قراءته دخل المجلس السيد حسن والد معالي السيد عبد المهدي المنتفكي عضو مجلس الاعيان اليوم ، وكان ضخم الجسم فلم يجد له موضعاً يكفل راحته فجلس في مكان واستعان بالاتكاء على عصاه فانكسرت ، ولما شاهد صاحب المجلس ذلك جاءه بعصا جميلة كانت لابيه الشيخ هادي وقدمها له وقال هذه هبوة من ابي احبوك بها ، وكان الشيخ كاظم يشاهد هذا الوضع وقد طلب منه قبلا « إمامة كهرب » كانت لابيه فاعتذر انها غير موجوده أوانها من مخلفات أبيه التي يجب ان يحتفظ بها كذكرى له فارتجل هذه الابيات الثلاثة في اثناء القراءة وضمنها هذه النكتة وها هي : ـ

نبئت ان عصا موسى لقد وهبت بداركم وهي دار بالندى عمرت
فظلت اسأل هل عين بها انفجرت
لكم وكم من عيون بي قد انفجرت

بانت نبوتكم للناس انس فسل
عن « الامامة » هل للصاحب ادخرت

ولعل القاريء لم يفته مافي البيت الاخير من جمال التورية وفن التعريض ، ولما ان سمع الشيخ محمد حسن ارجأ الجواب الى اليوم التالي وقدم له الامامة مشفوعة بهذه الابيات الثلاثة بنفس الروي والقافية : ـ

ابت امامتنا إلا ابا حسن اهلا لها نلذا عن غيره استترت
وقد رأت كفه البيضاء ساطعة جاءت تقبل تلك الكف وانتخرت
قالت ابو حسن نعم الامام فما امامة الحق في كفيه قد ظهرت

وكان الشاعر المنسي الشيخ عباس قفطان حاضراً عند السؤال والجواب فخمسهما .

يوجد الديوان بمكتبة ولده الشاعر الخطيب الشيخ حسن سبتي بخط ولد الناظم الشيخ محمد سبتي يقع في ٢٦٠ ص عدد سطور ص ١٦ طوله ٢١/٢ عرضه ١٥/٤ سم . سمكه ٣/٢ سم .

وقد قرض الديوان جماعة من الاعلام منهم الشيخ محمد حسن سميسم . والعلامة الشاعر المنسي الشيخ عبد الحسين الحياوي المتوفى سنة ١٣٤٥ هـ واليك قوله :ـ

نقدت بديع النظم نقد الصيارف فطل وافتخر فيه على كل عارف
وجزت مدى مستوقفاً كل فكرة بصائب فكر عنه ليس بواقف
وجئت بعالم يأت فيه ابن حرة مجيد قريضاً من تليد وطارف
نظمت دنانير البديع قلائداً تحلي بأبهاهن جيد الصحائف
والقحت ابكار القريض فانتجت يتيمات درأ عجزت كل واصف
وتاجرت آل الله بالمدح والرثا ففزت بربح منه خضر المطارف
واثلجت اكباد الوالين فرحة وارغمت فيه انف كل مخالف
سرى اقلم الجاري بيمناك مادحا فلست ترى في الحشر هول المواقف
سرى مستفزاً للرشاد كتائباً غزت ناسخات كتب كل مجانف
فغير صراط الحق ليس بمثبت وفي غير نقض النفي ليس براعف
ففز في جنان الخلد كاظم آنساً بأبكار حور حاليات المراشف

والمترجم له لم يكن قد احتفظ بخلوده في سجل الادب العربي فقط ، بل دون في سجل الادب الشعبي وقد وجه نظمه فيه لاهل البيت بالمدح والرثاء كما نهج في القريض ، وقد طبع له ديوان فيه باسم (الروضة الكاظمية) في المطبعة العلمية في النجف سنة ١٣٥٩ هـ